قصة قصيرة

ثالث المجانين!

أ.د.ظهور أحمد أظهر

"ما ذا سيقول الناس عن هذه الكارثة الكبرى التي صبت على صبا و مطرت على مطرا؟! وما ذا سوف تظن بي الحكومة العلية؟ أيقتل موظف إنجليزي كبير شر قتلة وأهولها ، فتمثل جثته شر مثلة وأخوفها، ثم تلقى جثته الممثلة المخوفة إلقاء على باب الدار لواحد من أوفياء الحكومة المرتزقين ، وأصدقائها المخلصين وأنصارها الأقوياء الموالين المحبين لها من أمثال (السير حشمت خان)؟ ذلك الذي لا يتحرك ساكن ولا تسقط ورقة من شجر في البلد إلا بإذنه! نعم ذلك الإقطاعي المهيب الذي يعتبر أقوى الأقوياء الإقطاعيين الذين سلطهم الإنجليز على المواطنين! أستذهب هذه القتلة الرهيبة والكارثة الكبرى بريح الحكومة الإنجليزية التي أخفقت الثورة الشعبية القائمة ضدها والتي فرضت سيطرتها بكل مكرها ودهائها وتفوقها العسكري على شبه القارة كلها! فهل سترغم هذه الفظيعة أنف الحكومة في التراب، وفي نفس الوقت ستأتي على كل ما اكتسبته أسرة السير الإقطاعي المواطن من هيبة في المجتمع واحترام في النفوس! أيمكن أن تعيد ثورة سنة ١٨٥٧م كرتها ضد الإنجليز المستعمر فتطرده من شبه القارة طردا وتسلب الحكم منه سلبا! كلّا! فذلك من المستحيل! ومن المستحيل أيضا أن يحرم السير حشمت خان وأسرته مما اكتسبته من المجد والشرف ، ومن الامتيازات والأوسمة والألقاب خلال قرن أو أكثر من الزمان!؟"

كانت هذه هي الأفكار المضطربة المقلقة المحرجة المتلاطمة التي سيطرت على الإقطاعي البنجابي (حشمت خان) فاستولت على ذهنه فهزته هزة عنيفة فاضطرب بها اضطرابا شديدا، وهو واقف عند باب داره الواسعة الشامخة يحرس جثة ممثلة مشوهة لذلك الموظف الحكومي الإنجليز المستر (ثارتون) الخسيس الجامح والشرير الفظيع الذي ذهب ضحية لأعماله الشنيعة الفظيعة وشهواته الجنسية الجامحة الآثمة!؟

وأما المواطنون من أهالي قرية حشمت خان الكبيرة المعروفة فقد اختلفوا في آرائهم وأقوالهم عن القضية اختلافا شديدا ، وذلك كان طبيعيا، لأن الإنسان من حقه واختصاصه أن يختلف فيما يراه، وأن يكون حرا فيما يفكر أو يقول، ويستطيع أن يتحدث بما يحلو له من الحديث، وخاصة في مثل هذه الوقائع والأحداث من الحياة الاجتماعية فلقد كان من قائل يقول بأن الذي قتل الإنجليز الشرير الفاجر فمثل جثته وشوهها لابد وأن يكون رجلا غيورا جسورا، إذ المستر ثارتون قد كان خسيسا خليعا متورطا في الشهوات الآثمة، فلعله قد تطاول واعتدي على شرف أحد من المواطنين فلاقى جزاءه السئ ومصيره المؤلم! بينما كان يرى البعض بأن الكارثة قد تكون مؤامرة وخطة مدروسة قد دبرها أعداء الإقطاعي الحساد الناقمون الذين أرادوا نهاية الأسرة والقضاء على ما اكتسبته من المجد والشرف والفخار، والثروات والعقار، ومن ثم فإن الحكومة الإنجليزية سوف تعتبر ذلك اعتداء على شرفها وفخارها وكرامتها و وقارها، وأنها لن تعفو عن الإقطاعي الغافل غير الكفو! أهكذا يكون أنصار الحكومة الأقوياء وموالوها الأوفياء؟! أيقتل موظف حكومي كبير من الشعب الحاكم فيمثل تمثيلا فظيعا فتلقى جثته على باب ذلك الناصر القوي والموالي الوفي دون أن ينتبه هو إلى الحادث الفظيع المروع!؟ وكيف لا ينتبه إليه حشمت خان الذكى

الألمعي والشاطر المحنك الذى لا يخفي عليه خافية ويطلع على صغيرة وكبيرة من أحداث القرية بسرعة هائلة ودون أي تأخير! لا يمكن أن يجهل هو شيئا من ذلك، وإنه لا يمكن أن يكون بريئا منه! كما أن فئة من الأهالي قد كانت تعلق على الحادث قائلة بأن المستر (ثارتون) إنما كان يأتي إلى القرية ليقضى إربه الوضيع ويرضى حاجاته الفاجرة، وكان الإقطاعي (السير) هو الذي يزوده بكل ما يرغب فيه ويضمن له ما يريده ويطلبه، إلا أن الإفرنجي الخليع قد كان حصانا جامحا أشد الجموح فكان يخرج في البحث عما يريده ويرضى شهواته الحيوانية الإبليسية فلعل ذلك الحصان الفاجر الجامح وعبد الشهوات الجنسية الشيطانية قد تطاول على شرف لأحد المواطنين فحدث به ما حدث!

وجملة القول فإن أهالي القرية كانوا قد اختلفوا في ذلك اختلافا كبيرا وتفرقوا فيه شيعا وذهبوا كل مذهب فرأى كل واحد منهم رأيه في الضيف المقتول و مضيفه المسئول، ولكنهم كانوا يتفقون على نقطة واحدة وهي أنهم تعاطفوا مع حشمت خان الإقطاعي وعزوه على المصاب كما أنهم أيدوه كل التائيد ووعدوه بكل ما يحتاج إليه من المساعدة والتعاون وحتى المخاطرة بنفوسهم من أجله وفي سبيله ، والشهادة المطلوبة في مثل هذه القضايا والأحداث ، والتزكية له كما يشاء وحين يطلب!

وأما بالنسبة إلى السير حشمت خان الإقطاعي نفسه، فإن القضية لم تكن حادثة من الحوادث العادية و إنما كانت كارثة من الكوارث الكبرى التي نزلت به كنازلة من السماء ، وكانت مفاجئة أشد وأثقل من جبال الهموم والأحزان قد حطمت رأسه وقضمت ظهره وأقضت مضجعه فبدا له وكأن سيلا أتيا جارفا قد أحاط به وكاد يذهب به وبأسرته كما يجرف السيل الأتى العارم بكل ما يأتي في ممره وطريقه من النفاية وسقط المتاع،

ومن الشجر والحجر! فقد جال في خاطره وهو واقف وقفته تلك، بأن الحكومة الإنجليزية سوف تغضب منه وتسئ به الظن، وبذلك يبدأ دور شقائه وبؤسه وحرمانه، وتحرم أسرته من النعم والثروات، وقد تفقد كل ما اكتبسته من المجد والشرف ومن المكانة والامتيازات، مما لم يكن في حسبانه لولا أن فكرة كانت تمر به مرا سريعا فيجد فيها شيئا من السكينة والعزاء والطما نينة والسلوى، وهي السيرة السيئة والسمعة القبيحة التي اشتهر بها ذلك الإفرنجي الخليع الشقي، وأن حاكم المحافظة كان له صديقا وهو الآخر كان يسئ الظن بالمقتول (ثارتون) لأنه كان يسبب له الكثير من المشاكل، ويحاول أن يضغط عليه من قبل مكتب نائب الإمبراطور الهندي في دلهي ! فتلك كانت هي بارقة الأمل الوحيدة بالنسبة إلى السير الإقطاعي الصغير مما جعله يسارع في إبلاغ التقرير إلى رئيس الشرطة والاتصال الفوري بحاكم المحافظة الإنجليز، فلم يبق له إلا أن ينتظر الشرطة وإجراءاتها وتنتهي الأزمة، فأصدر الأوامر بإبعاد الناس عن منظر الجثة وتركيز جهودهم على أعمالهم المنوطة بهم واهتمامهم بها كما أنه انفرد بحرس الجثة والاهتمام بها فوقف عندها معتبرا ومتعظا بمشهدها المؤلم المخزي! ثم همهم يقول في نفسه ناظرا غامزا إلى الجثة ومفكرا في مصير الرجل: "أيها الأفرنجي الأحمق الشقي! ما الذي غرك فجعلك تشتاق إلى البطش بالصيد مباشرة! فإن التموين الذي كان يأتيك من قبلنا لم يكن رديئاً أو معيباً على أية حال! فلما ذا ألقيت بنفسك إلى التهلكة والبوار!"

ثم التفت فجأة إلى جثة الأفرنجى فسيطرت عليه أفكار محزنة مخيفة فذهبت به الظنون كل مذهب فاعترته رعدة مجهولة فأخذ يقول لنفسه: "لا سمح الله إذا تأخر الحاكم ورئيس الشرطة وصادفنى موظف إنجليزي كبير آخر غيرهما وفوجئ بالجثة فتبرم غاضبا فإن الظروف قد

تـأخذ فلـتة، وتتجه اتجاها مجهولا! وقد يقول: أهكذا يكون مصير فرد من أفـراد الشـعب الحاكم وذلك على باب شخص من الشعب المستعبد المحكوم يدعـي الوفـاء والـولاء لسـادته الحكـام الإنجليز!؟ لما ذا لا يكون مصيره هو مصـير المقـتول الإنجلـيز؟!" وذلـك لأنـه لاثقـة بالحـاكم الأفـرنجي المـتمرد المـتلون! ثـم تذكـر الرجل تاريخ أسرته الطويل الحافل بالولاء للإنجليز كما تذكر ميلهم إلى الحقائق الواقعية وسيرة العدل بين الناس فعزي نفسه بنفسه قـائلا بـأن الإنجلـيز هـم شـعب ذكـي وحكـيم يـدرك الحقـيقة مهما كانت الظـروف! وهـو بـرئ لا ذنب له! وفوق ذلك كله فهو قد وقف يحرس جثة المقـتول الشقي! فهل رأى أحد قاتلا يحرس جثة مقتوله؟ ومن هنا فقد تأكد حشـمت خـان بكـل ثقـة ويقين ودون أي شك وريب بأنه سوف يتمكن من الدفاع عن نفسه وعن قضيته العادلة، كما أنه سوف يستطيع أن يحتـفظ بما ورثـه مـن تراث أسرته وتقاليدها العريقة ومجدها التليد! وبالإضافة إلى ذلك كلـه فـإن صـديقه المحـافظ الإنجلـيزى سـيكون في عونـه وأن سمعة المقتول السيئة قد عرفها حاكم إقليم بنجاب في لاهور وحتى مكتب نائب الإمبراطور الهندي في دلهي!

وفجـأة، ومـرة أخـري، أخـذ حشـمت خـان يفكـر في جـده الأعـلى (رياسـت خان) الذي كان قد أنقذ العقيد الإنجليز الجريح المكدود الذي كان قـد أشرف على الهلاك، وجنوده الجرحى الذين كادوا يلاقون حمامهم لولا رياسـت خـان الـذي أنقـذ الجميع من براثن الموت فعالجهم علاجا وزودهم بكل ما احتاجوا إليه من السكن والغداء والحرس فقد كان بالإمكان أن يعيد جـيش السـيخ الكرة فيقبض عليهم ويذبحهم كما كان ذلك الجيش السيخى قد قاتل الجيش الإنجليزى بأقصى الشجاعة وأبلغ القوة في المعركة حتى أن السـيخ كـانوا قـد ذبحوا الجيش الإنجليزي ذبحا وقطعوه كما يقطع السكين

الفجل والجزر من الخضر! ! ورغم أن هجوم الإنجليز كان مفاجئا إلا أن الجنود السيخ لم يلبثوا كثيرا حتى عادوا إلى وعيهم فثبتوا في وجه العدو الإنجليز في المعركة و قتلوهم شرقتلة، وكان العقيد(جون ديوك) وبعض جنوده يئنون في ميدان القتال لأن الجيش السيخي كانوا قد تركوهم ظنا منهم بأن الجيش الإنجليزي قد قتل عن آخره فلا داعى إلى تفتيش الموتى وتدفينهم الآن، ويمكن لهم العودة إليهم بعد ذلك بسهولة فى ضوء النهار، وقد استغل رياست خان الجد الوضع الراهن في الليل المظلم فذهب ومعه رجاله من الأعوان والأنصار فشالوا العقيد الجريح وجنوده الجرحى وقد أشرفوا على الهلاك ولولاه وأعوانه لكان من المستحيل أن ينجو أحدهم من الموت، فكانت تلك هى بداية الصداقة والصلات الودية بين الإنجليز وبين أسرة رياست خان الجد الذى نال الجوائز ووسام الولاء بالإضافة إلى المربعين (حوالى مئة فدان) من الأراضى الزراعية. وكان حشمت خان ينتهز فرص الزيارة من الإنجليز الحكام فيريهم صور العقيد وجنوده الجرحى والتى كان يحتفظ بها فى غرفة النوادر التاريخية لأسرته!

وكان السير حشمت خان يتعزى بهذه الفكرة كلما تذكرها ويطمئن إليها و يتأكد بأن الأزمة سوف تنتهى إلى ما يرضيه و يقنع سادته الحكام الإنجليز. وفوق ذلك كله . فقد كان بريئا لاذنب له . وبقى أن جثة المقتول قد وجدت على بابه فذلك أمر غير عسير. لأن العقل لا يصدق أن يقتل العبد الوفى سيده العلى ثم يلقى جثته الممثلة المشوهة على بابه ! وإلى ذلك فقد كان المقتول سئ السمعة قبيحها وقد تورط في العديد من الجرائم تكفى واحدتها فقط لتسبب قتله فقد كان يأخذ الرشاوى الباهظة ويظلم الناس ظلما كبيرا و يقامر ويشرب الخمر ويزنى وكان غير متزوج ورغم ذلك فلم يكن يدخل غرفة نومه ليلا دون المرأة!

وأما القرية التى كان حشمت خان يسودها فقد عرفت بالأراضى الخصبة و المراعى الخضراء والحدائق الغناء والبساتين المليئة الحافلة بالزهور المختلفة والفواكه المتنوعة، وامتازت بالمناظر الرائقة والمشاهد الجميلة وكانت تعتبر مهدا للجمال الطبيعى والبشرى معا ، وأما عيونها ذات المياه المعدنية العذبة الباردة فقد كانت عديدة و موضع إعجاب وانجذاب للزوار من الأجانب والمواطنين على السواء، وكان الأفرنج يقبلون عليها إقبالا عظيما وينجذبون إليها انجذابا شديدا ، وكان المقتول من بين هؤلاء الزوار المقبلين المنجذبين فكان يكثر من زيارة القرية ليتمتع بجمالها الطبيعى والبشرى معا وقد وجد المياه المعدنية تفيد المعدة وتقويها وتصلح نظام الهضم لها ، ومن ثم فقد كان كل شئ متوفرا لفواحشه و فجوره وكان كلما زار القرية تكاثر بروز الجمال البشرى الفاتن و ظهوره وكان يشتريه ثارتون بكل ثمن مهما كان ، ظنا منه بأنه جمال أصيل وليس مستوردا يستورده له صاحبه الإقطاعى الصغير! وكان ذلك الأفرنجي الخليع يبحث عن فتيات القرية ليضلهن إضلالا و يغويهن إغواء وكان يداعب نسوة مضيفيه و أصدقائه كلعبة عادية ، وأما اختطاف الفتيات الغافلات والاعتداء على كرامتهن فقد كان من دأبه البغيض الكريه ومهنته الفاحشة القذرة !

ومرة من المرات كان ثارتون قد استأجر سفاحا بلطجيا من قرية مجاورة كان يعمل في اصطبل لعمدة القرية فسرقا أجود فرس من الاصطبل فذهبا بها إلى قرية أخرى فاختطفا فتاة فأردفها (ثارتون) خلفه مشدودة الفم واليدين ، وعبثا تابعه أخوها لينقذها عدوا سريعا وراء الفرس فعندما اقتحم (فريد خان) الاستراحة الرسمية المحجوزة للموظفين الأفرنج لم يجد بها أحداً غير أخته (فريدة هانم) الميتة والتى كانت قد اختلست بعيد وصولها مسدس (ثارتون) اللعين فانتحرت به وضحت بروحها من أجل عرضها!

و بالصدفة بعد أيام جاءت امرأة فرنجية إلى القرية للنزهة بها فخطفها بعض اللصوص فانتهز (ثارتون) الفرصة ليوجه تهمة الخطف إلى فريد خان أخ الفتاة المنتحرة ليتقى من شره و نقمته فألقى القبض على فريد خان بتهمة خطف السيدة الأفرنجية إلا ان اللصوص أطلقوا سراحها بعد ما قضوا إربهم منها فعادت فرحة مرحة كأن لم يحدث بها حادث و أفرج عن المتهم فريد خان الذي قرر في نفسه ما قرر، ولم يكن يعرف حشمت خان شيئا عن ذلك العداء بين ثارتون و فريد خان و إلا فقد كان من السهل الميسر له أن يوجه تهمة القتل إلى فريد خان!

ولكن السير الإقطاعى قد استطاع أن ينقذ نفسه من الأزمة بجهود خاصة قام بها رئيس الشرطة المحلية وحاكم المحافظة الإنجليز ، ولكن قاتل الأفرنجى الخليع كان قد أصبح لغزا وسرا غامضا للحكومة ، وقد كان صديق أخت ثارتون و عشيقها يعمل في مكتب نائب الإمبراطور الهندي في دلهى فظلت أخت المقتول تطالب بالقبض على قاتل أخيها من طريق صديقها مما جعل الحاكم الإنجليزى لإقليم بنجاب يعلن بجائزة مالية كبيرة و مربعا واحدا من الأرض الزراعية لمن يأتى بخبر القاتل أو يساعد الشرطة للقبض عليه ، وطلب إلى حشمت خان أن يساعد الحكومة في القضية فرأى فيها فرصة ذهبية ليضيف بابا جديداً من المجد و الشرف إلى تاريخ الأسرة الحافل بالأمجاد فيضم مربعا ثالثا إلى المربعين القديمين فأخذ يفكر و يفكر في طريقة تسهل عليه إحضار القاتل مهما كان الثمن فهو أحق بهذه الجائزة الحكومية وليس لأحد أن يتحداه فيها في القرية، و بعد تعب وكد طويلين جاءت له فكرة طريفة أعجب بها فوقف عندها فاستقر عليها رأيه فمشى مشية المغرور المتكبر مبتسما كأن الشيطان قد مسه فأوحى إليه بما سَرَّه و أعجبه!

وكانت الفكرة هى فكرة إبليسية حقا! فقد كانت له أخت وحيدة ، وكانت قد تزوجت من فنان شاب جميل أنيق من أهل القرية دون إذن أهلها فأنجبت له ولدا جميلا مما أقلق حشمت خان حيث ظن بأن عقارات الأسرة لا بد و أن تنقسم يوما فتأخذ أخته نصيبها فيرثها من لا قرابة له بالأسرة ولا تمت إليها بصلة! فرأى من الضرورى أن تصبح زبيدة ، حفيدة رياست خان و أخت حشمت خان أيما ! ويصير ابنها الوحيد بلال يتيما!! وقد تحقق ما فكر فيه حشمت خان وتمناه!! فتحولت أخت حشمت خان الأيم إلى دار أخيها العريقة ومعها ابنها بلال الوحيد اليتيم الذى أخذ يعيش بين أهل الدار خادما لهم ، والذي كان من السهل لخاله حشمت خان أن يجعل من ابن أخته خروفا للتضحية يوما ما و في مناسبة من المناسبات ! وقد حان ذلك اليوم وجاءت تلك المناسبة!!

فإن ابن الأخت لحشمت خان سوف يطيعه و سوف يأتمر بأمره وسيفعل ما يشاء خاله الإقطاعى أن يفعل! فليس على ابن الأخت إلا أن يقف يوما بين يدي القاضى في المحكمة فيعلن قائلاً: " بأن هذا الأفرنجى اللعين قد حاول الاعتداء على والدتي البرئية الوروعة فأخذتنى غيرة فأثارتنى على الإقدام فبدأت أكيل له ضربات شديدة قاضية بكل ما تيسر لى من السلاح وبكل ما كان في يدى من قوة فقضى عليه فشوهت وجهه ومثلته مثلة حتى لم يعد من الممكن أن يعرف ثم ألقيت جثته المشوهة على الباب ليكون عبرة لمن يراه! و أما الأخت الشقيقة زبيدة فإنها هى الأخرى سوف تطيع أخاها الإقطاعي فتؤيد ما سيقوله ابنها الوحيد ثم تعرض القضية للمحاكمة التى لن تمتد كثيرا، و أخيرا سوف يطلق سراح الإبن الوخيد ليعود إلى أمه الحنون لكي يعيش معها عيشة الرضاء والهناء والراحة

والسرور! فكانت هذه هى الفكرة الإبليسية التى جاءت للإقطاعي الطامع القاسي فدبرها تدبيرا لينفذها تنفيذا ! !وإلى الله المشتكى !

وقد استطاع الرجل أن يقنع بذلك شقيقته و وحيدها وبدا له وكأن حلم المربع الثالث قد كاد يتحقق ، فظهر على وجهه بهجة و سرور وطمانينة وحبور إلى جانب كل ثقة قوية و إرادة حاسمة وبصوت مرتفع رنّان ، فقال وهو يخاطب القاضى: " يا حضرة القاضي! إن ثارتون الأفرنجى الوقح الخليع الفاسق قد استغل غياب خالى حشمت خان فتطاول على شرف أسرتنا واعتدى على والدتى الورعة الطاهرة مما أثار خفيظتى فقتلت ذلك اللعين الفاجر فأردت أن أروى غليلى و أرضى عواطفى من الكراهة والتحقير والغيظ والغضب فمثلت جثته و شوهت وجهه ثم ألقيت جثته الممثلة المشوهة على باب الدار وانتهى الأمر ! !

وأما الأم فقد كان لزاما عليها أن تؤيد ما صرح به وحيدها ثم أضافت قائلة بأن ابنها البار الجرئ ليستحق كل التكريم والجائزة من قبل الحكومة وحتى المربع المعلن به، بما حقق للأسرة من المجد والفخار، ولا يستحق أية عقوبة أو محاكمة فإننى أرجو المحكمة أن تطلق سراح ابنى الوحيد ليرافقنى ويعود معى إلى المنزل! !

إلا أن القاضي لم يحفل بما قالته الأم و إنما أمر بإلقاء القبض على بلال بتهمة القتل و محاكمته مما أدهش الأم و أقلقها وكاد قلبها يطير خوفا و حزنا وهلعا ! وقد مرت القضية بمراحل من محكمة المحافظة إلى المحكمة العالية فمحكمة الإستيناف ، وقد أقرت كل محكمة ما أصدرته محكمة المحافظة ضد المتهم من السجن مدى الحياة!

وقد جن الولد كما جنت أمه بهذه العقوبة الظالمة و الحكم الصادر ضد البرئ المخدوع، فأما الولد فقد ظل يتنقل بين عناء السجن ومشقته و

مستشفى الأمراض الدماغية، وأما الأم البسيطة البرئية المخدوعة فقد أنهكته الصدمة فبقيت صامتة صماء لا تسمع ولا تنطق ببنت شفت، وقد أخفت في صدرها ما أخفت من الهموم و الأحزان والآلام ، واصبحت امرأة شقية تهيم في الشوارع و المزارع تحمل هموم زوجها الشاب المقتول وابنها الفتى المجنون تنتظره صباح مساء فلا تجده ولا تراه ! ولم تكن تستطيع أن تبكى أحدهما أو تقول عنهما شيئا، وذلك لأنها قد طلب منها الثمن لما تبقى من الأنفاس لوحيدها المسجون المجنون، وهو السكوت والصمت! وقد رضيت بذلك بكل سرور و كره معا! فإن من الأشقياء البائسين قد يدفعون ثمنا باهظا لما تبقي لهم من الأنفاس! وإلا فقد كانت متأكدة بأن حشمت خان يعرف كيف يحقق ما يهدد به! فإنها لو أباحت يوما بسرها الغامض لفقد وحيدها ما تبقى له من الأنفاس!

و بعد يومين أو ثلاثة من استلام الجائزة الحكومية على مساعدة الحكومة في القبض على " القاتل" استقبل حشمت خان ابنه رياست خان الحفيد العائد من انكلترا، والمسافر إليها باسم الدراسات العليا ولكن الفتى لم يفعل شيئا ما يسمى دراسة خلال إقامته في انكلترا! وإنما عاد كما سافر بلوح من الدماغ برئ فارغ لاغبار عليه ولا وصمة به مما يسمى علما! فقد قضى الفتى سنواته الأربع في فنادق لندن و نواديها عاملا بقول الملك المغولي بابر القائل بقولته المشهورة" حقق يا بابر! ما تريد أن تحققه من حياة المتعة و البذخ إذ الإنسان لن يعود إلى دنياه ثانيا! " ، وقد غير الشاب الخليع القولة البابرية تغييرا يسيرا حسب ظروفه فقال: " حقق يا رياست خان ما تحب تحقيقه من حياة الخلاعة والاستهتار فإنك لن تعود إلى لندن مرة أخرى!! "

وكانت أفراح حشمت خان مؤقتة فلم يمض يوم أو يومان حتى أدهش الإبن أباه بما طالبه من بيع الأراضي الزراعية كلها والسفر إلى انكلترا معه لكي يتمكن هو من الزواج مع عشيقته و صديقته الأفرنجية التى كانت تنتظر عودته في لندن ! وأما حشمت فقد صعق بما سمع و بدا له وكأن ما كان يحلم به في المستقبل من الآمال إنما كان قصرا زجاجيا من الأحلام وقد تحطم بكلمة واحدة قالها ابنه وحاول الأب أن يقنع ابنه وألح عليه أن يغير القرار الذى اتخذه ولكنه رفض رفضا باتا فاشتد النقاش و الجدال بينهما حتى هدد الابن أباه بقتله أو بالانتحار فهدده الوالد بحرمانه من الإرث بسبب العقوق ! !

و في مساء يوم تأخر الابن فلم يعد في الموعد مما أقلق الوالد فأرسل الناس وراءه فبحثوا عنه في كل مكان ولكن دون جدوى! وقال قائل مخبراً عنه بأنه رآه واقفا على البئر ساكتا جامدا واجما حزينا وكان الناس قد يئسوا من العثور عليه ، و أخيرا أشرف أحدهم على البئر التى ورثوها كابرا عن كابر فرأى الرائى شيئا يطفو على سطح الماء ثم اختلس الوالد النظر و أخذ يطل على البئر فإذا بابنه الوحيد و مركز آماله كلها وسمى جده الأعلى (رياست خان) اللابس البذلة الأفرنجية والأحذية اللامعة يطفو على سطح الماء ، فإذا بالإقطاعى الجبار العنيد يُصاب بسكتة ثم يفقد وعيه ثم يأخذ يهذى هذيانا مروعا ثم يجن جنونه و يرى الناس إنسانا مجنونا كان قبل لحظات مسرورا مغرورا بما حصل علىً ثالث المربعات " وبعودة ابنه الوحيد من انكلترا! ثم أخذ الرجل يمشى مرة ثم يقف ثم يهرول بين البئر والبيت جيئة وذهابا ويفعل كما يفعل المجانين، يصيح مرة ويصرخ أخرى ثم يهتف باسم ابنه الوحيد و يناديه قائلا: " رياست خان ! يا ابنى رياست خان ! ! وعند ما سمعته شقيقته وهو ينادى ابنه و يصرخ ، استفاقت من نومها

الطويـل وغفلـتها الغلـيظة ففتحت القفل من السكوت المطبق على شفتيها و أخـذت هى الأخرى تهتف باسم وحيدها المسجون المجنون وتناديه قائلة: " يا بلال ابنى الوحيد الحبيب! هل أطلقوا سراحك ؟ وهل عدت إلى؟!"

وذات مسـاءرأت أخـت حِشـمت خـان الأيـم زبيدة شبح بلال قادم إليها في الظلام وهى تناديه ففوجئت بصوت نحيل يقول لها: " نعم! يا أمى نعـم! فأدهشـها ذلـك فوقفـت حائـرة وظنـت كأنه شبح أو حلم ثم انتبهت فـنظرت محملقة في وجه ابنها بلال! لأنه لم يكن حلما أو شبحا و إنما كان وحيدها بلال حقا ، فـقد أفرج عنه و أطلق سراحه!

وأمـا سـبب الإفـراج عـنه فهـو أن فـتاة من فتيات القرية المجاورة كانت قد رفضت الزواج في حينه ، وقالت بأنها لن تتزوج إلا من فريد خان و إلا فسـتـنـتحر! ذلـك الشـاب القـوى الشجاع الذى أنقذها من براثن ذلك الأفـرنجى الحـيوان الخلـيع وصـان عرضـها لتعـيش بـين أهلها! فمنذ تلك الـلحظة كانـت قـد قررت في نفسها بأنها لن تتزوج من أحد غير فريد خان دون أن تخـبره بقـرارها فكـأن الحب كان من طرف واحد ولم يعرف الشمع شيئا عن فراشته العاشقة له!

وكـان الأفرنجى الخليع ليلة قتله قد استأجر ذلك البلطجى السفاح فذهب إلى القرية المجاورة ليخطف لؤلؤتها النادرة و نورتها الناضرة فيمزقها تحـت وطـأة شهواته الحيوانية ، وعندما أردفها خلفه مشدودة الفم واليدين وأراد أن يهـرب بهـا فاجـأه فـريد خـان فـثار ثائره وفار فائره وبداله وكأن الأفـرنجى قد اختطف شقيقته فأمسك لجام الفرس ثم لكم السفاح المأجور في صـدره لكمـة بأحذيـته الجلديـة الثقيلة ثم ضرب على رأسه ضربة لم يتمكن بعدهـا مـن القـيام أو الحركة ثم أخذ الأفرنجي بعنقه فخنقه خنقا شديدا ثم رمـى بـه عـلى الأرض الوعرة ذات الأحجار البارزة و الصخور العاتية ، ولم

يمهله ليقوم فلكم على وركيه لكمة شديدة فاصطدم رأسه بصخرة عاتية فلم يتحرك بعدها ولم يتمكن من القيام أبدا! ثم تقدم فريد نحو الفتاة المخطوفة المذعورة ففتح خمارها المطبق على فمها فغطى به رأسها ثم أشار إليها أن تسرع إلى بيتها ولا تخبر أحدا بما حدث بها! ومن ثم فقد طبقت الفتاة على فمها مؤتمرة بأمر منقذها وحبيب قلبها ذلك الجرئ القوى الأمين!

ثم التفت فريد إلى البلطجى السفاك المأجور المغشى عليه فشده على الفرس التى كان السفاك المأجور قد سرقها من الاصطبل لسيده ثم ركز الفرس فأخذت تعدو عدوا سريعا للغاية حتى انفتح الحبل الذي كان قد شد به السفاك فسقط على رأسه في الطريق فمات!

ثَم نظر فريد إلى جثة الأفرنجى الملقاة على الصخرة فأراد أن يثأر لأخته فريدة ويثلج صدره و يبرد غيظه وقيظه فمثل الجثة شر تمثيل وشوه وجه العلج الأفرنجي تشويها ثم جاء بالجثة الممثلة الهامدة فألقاها على باب الإقطاعى القواد لذلك الخليع الفاجر!

تلك هى القصة التى حكتها الفتاة المخطوفة و التى كان قد أنقذها فريد خان فطارت بها الأفواه وشاعت و انتشرت كما تنتشر النيران في البادية الملتفة الأشجار حتى اطلع عليها رجال الحكومة و أعوانها فألقى القبضُ على فريد خان بتهمة القتل فاتضح بأن بلال بن زبيدة برئ لاذنب له فأفرج عنه و أطلق سراحه ، وكانت الأم عطشانة عطش النظر إلى وحيدها وقد روّته بعد فراق دام ثلاث سنوات، وعطش الماء البارد الذى لم ترزق به خلال تلك المدة فأرادت أن تروى صدرها بالماء البارد من البئر التى أبعدت عنها وطردت مرات و كرات فذهب بها ابنها بلال إلى تلك البئر لأخواله حيث رأت هى وابنها مشهدا مؤلما غريبا للغاية فقد كان الناس منشغلين بإنقاذ حشمت خان المجنون الثالث!!

* * *